أهمية النحو في فهم لغة القرآن

د. عبد القادر بن فطة
كلية اللغات و الآداب ـ قسم اللغة العربية و آدابها.
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر. الجزائر

الملخص:

إنّ دراسة التراكيب النحوية في القرآن الكريم لم تتوقف عند حدود المفهوم العرفي لدى فصحاء العرب، بل أثبتت وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني في انتقاء الصيغ، وحسن ترتيبها في نسق لغوي بديع. فقد أحدث القرآن الكريم كثيرًا من الأنماط اللغوية الفريدة التي تميزه في الاستعمال من غيره؛ إذ كل بنية في القرآن الكريم منتقاة بعناية فائقة، ودقة متناهية، وموضوعة في سبك رائع قوي. لذلك عكف أهل اللغة على استيعاب جزئياته خاصة تراكيبه النحوية دفعتهم إلى الاجتهاد في انتقاء الشواهد لإبراز كماله، والإحاطة بمضامينه ليكون عنصرا يرفع صورة اللغة المنبعثة من النّص .

Abstract :

Studying the grammatical features of the Holy Quran did not stop at the limits of the definition already used by Arabs, yet it proved one of the various aspects of Quran miracles in selecting and ordering structures in a perspicacious linguistic style. Hence, The Holy Quran created numerous particular linguistic styles that are peculiar to this book. Every structure of quran is selected with a great attention, an infinite accuracy and put within a strong style. Therefore, linguists felt the urge to assimilate its particularities, especially its grammatical structures that pushed them to perseverate in tackling the signs to clarify its perfection and handling its contents so that it becomes a tool of improving the language image emanated from the

علاقة النحو بلغة القرآن

إن الاقتراب من لغة القرآن يَقتضي التعرُّف على مناهِجِ الكلام العربي، إذ يَلعب هذا دورًا هامًّا في الكَشف عن حقيقة العلاقة بين اللفظ و المعنى، لأنَّهَ يتَّصل اتصالاً وثيقًا بعمليات شعوريَّة وعقليَّة تتم داخل الملكة. وهذه

حقيقة توقف عندها العلماء قديماً تكمن في عدم التعالي والقفز فوق الواقع اللغوي والاستخفاف بمعطياته، لأنّ لغة القرآن تؤكد وجود معايير جوهرية، و أقيسة تنظيمية في تركيب اللغة وصرفها وأصواتها.و يستدل على ذلك من النصوص وقراءاتهم وفهمهم وإفهامهم ،وقدرة اللغة على نقل المعاني و المقاصد واستخدامها فيما وجدت من أجله.و قد شعر اللغويون بعدم الانغلاق في بوتقة زمانية محددة، و الولوج في اللغة لتوسيع آلياتهم للقيام بوظائفهم المتجددة، تكونت لديهم القناعة بأن لغتهم الرسمية دخلت أرشيف التاريخ.

هناك العديد من الأسباب التي زادت من أهمية لغة القرآن، فبالرغم من ورود بعض الصيغ التي عهدها العرب، فإن الغالبية العظمى من التراكيب ارتبطت ارتباطاً بديعاً بالارتقاء، فهي مستودع ضخم من الأنماط الجديدة في لغة منحت الكثير من المفاتيح لعلماء اللغة لمعرفة كيفية عمل العقل، بل وعن العقلانية، وإتباع القواعدً المفيدة للمقاربات اللغوية.

فالهدف الأساسي هو الوقوف على ضرورة التعامل مع لغة القرآن من منطلق شمولي مؤسس على تعدد الحقول المعرفية التي احتضنت أنساقه، مثل الصوتيات فقه اللغة والبلاغة والأصول والمنطق...، فالطريق نحو بناء صرح اللغة يجب أن يبدأ بمحاورة هذه الكنوز المعرفية التي تختزن أصوله ومقوماته، فالرجوع إليها محاولة جادة لاستنباط النظام المعرفي المتحكم في جهاز اللغة يشكل مدخلا نحو إعادة بناء، وتركيب أدوات الوصف، والتفسير التي تستعمل في دراسة الظواهر اللغوية.

لقد لاحظ أهل اللغة بأنّ النحو ضرورة للغوي فهما و درسا، و للنحوي تطبيقا وتفصيلا، فهو من أهم العلوم اللغوية في الترجيح بين الأقوال المتباينة واستنباط القواعد النحوية.فقد يخطئ من يظن بأن الدلالة اللغوية تختصر على المستوى المعجمي، ولا تتجاوزه إلى المستوى النحوي الذي يمثّل في الحقل اللغوي كلّ الأنماط التركيبية .

فعلم النحوّ آلة عقلية في فهم النمط التركيبي في القرآن الكريم، وعلى هذا الأساس اختلفت المدارس النحوية في كثير من المسائل تعكس مرجعية أصحابها في الاستدلال التي ساهمت في وضع ضوابط استوعبت الدلالات الإفرادية و التركيبية. فهو يساعد على فهم الدقيق لمقاصد النصوص هذا إذا التزم أصحابه بالموضوعية، أمّا التعسف الذي توهّمه بعض النحاة فلا علاقة له بلغة القرآن، ويعدّ من الحواشي والهوامش.

إن الإسهاب في إظهار قواعد النحو هو من توجهات اللغويين و النحاة في توظيف ملكاتهم في التعامل مع القرآن الكريم فهو مرتبط في مدلوله بعلم اللغة "أما علم اللغة فهو متعلق بالقوانين التي تحكم دلالات الألفاظ والتراكيب."(1) لقد كرّس علماء النحو مبدأ التبعية للقرآن بالوعي و الفهم قصد تطويره و جعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم و حلّ عقده ، وقد سلكوا الاتجاه العلمي للإفهام و الإقناع في تحليل مسائله، فاستقرِؤوا التراكيب النحوية الواردة في القرآن لاستخلاص الأصول، فكانت قياسا يثبتون بها القواعد للتعليل والإلزام .وقد ارتكزوا على التأويل بإعمال المنطق، والاجتهاد في فهم النصوص والوصول إلى التخريجات. فالمنطلق الذي تأسّس عليه هو النص القرآني بعد أن استقرت لغته لدى أهلها، فوقفوا عند دراسة القضايا المتعلقة بالجمل لمعرفة الأسس و نظامها في السياق.

فقد أثبت صبغته الشاملة فهو لم يقف عند الكلمة المفردة بل أصبح منهجا لتحليل الجمل على معايير ثابتة تستمد موضوعيتها من مصادر اللغة كاشفا عن أنساق تركيبية بديعة،جامعا الأبنية الكلية للنص، مستثمرا ما أنتجته قرائح العرب وعبقريتهم، يصب كلّه في نظام لغوي مشتملا على كلّ الاستعمالات اللغوية ذات الأنماط المختلفة، الذي يعكس عظمة تراثنا الذي راعى التراكيب ودلالتها من منطوق ومكتوب كأنّه اللغة بعينهاقال ابن خلدون808ه "النحو هو علم العربية."(2)

فقد اعتمدت اللغة العربية عليه فكان سلطانه و قوامها أدرك القدامى قيمته في التفريق بين المعنى والإعراب قال ابن جني392ه " ألا تر إلى الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى ، فإذا مرّ بك شيء من هذا عن أصحابنا ، فاحفظ نفسك منه و لا تسترسل إليه ، فإنّ أمنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى."(3)

ما ينبغي ذكره هو أنّ بعض علماء النحو كانوا يلجأون إلى الإعراب لضبط بعض المسائل النحوية لأنّ أدقّ التراكيب مطروحة في القرآن الكريم، و لا يعرف هذا إلا من تبصّر في النمط التركيبي في القرآن ، ما يعكس قوة العلاقة بين اللغة و النحو.

إنّ الاهتمام القدامى به دليل على نضجهم اللغوي خاصة في عهد الخليل وتلميذه سيبويه فقد حما اللغة من اللحن والابتذال حين اختلط العرب بالعجم ، ومنح القدرة للمهتمين بها للولوج

في أسرارها واستقراء حقائقها و الحرص على بيئتها تحقيقا وتوثيقا،ما جعله ينشأ على يديهما لتُستقرّ ضوابطه ومضامينه في الكتب، فظهرت المدارس كالبصرة و الكوفة فأخذ أصحاب المدرستين ما يؤيد رؤيتهم ، ويناسب اتجاههم رافضين كل ما يخالف القياس. ولكنّ البصريين تحفّظوا في التعامل مع اللغة في الاحتجاج، و كان معيارهم اللغوي الإتقان، والدّقة لضبط القواعد لذلك محّصوا الكلام ،ولم يقبلوا إلا ما يناسب الأقيسة العربية الفصيحة.

لقد كثرت المؤلفات رغم اختلاف توجّهات مؤلفيها إلا أنّ طبيعة علم النحو تملك آليات جعلته يفرض على أصحابه المعارف اللغوية المدعّمة بالملكات لضبط محتوياته ومقاصده. فالظاهر من مؤلفاتهم أنّهم فهموه فهما عميقا لاعتمادهم عل لغة القرآن، ما جعلهم يرفعون عن اللغة الاضطراب في تراكيبها، و توضيح مراميها، والكشف عن إعجاز القرآن.

إنّ معرفة العلماء لأسرار هذا العلم جعلهم يدركون أساليب التعبير على نحو تلقائي، ومن واقع اللغة و ما ينفرد به القرآن من نظام متكامل نحويا و صرفيا، و هذا يبرهن على عالمية لغة القرآن. إنّها تجمع بين الذوق و النظام العقلي ، فأثرته بطرق الأداء وسائل التعبير، فاجتهاد علماء النحو انطلق من نظام اللغة و مناهجها ، فتركيب الجمل و صياغة الأساليب منبعهما عمق اللغة فإذا زاغت عنها لحقها الخلل، وأصابها الابتذال "و لا يعقل أنّ صاحب السليقة اللغوية يخطئ ، إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول تراعى فيها حياته العادية حين ينطلق على سجيته."(4)

إنها لغة التواصل الديني و الإنساني والحضاري بين لغات عالمية، وذلك ما اتسمت به من سمات كالنماء والتوليد الداخلي، والقدرة على احتواء الألفاظ الأعجمية التي أخرجتها من القرآن ، وتعدد أنماط التراكيب على نحو متميز يستعصى حصرها، فانسجام الجمال التعبيري و الأنساق جعل العلماء يطمئنون على اللغة العربية و تثبيت علومها .

فلغة القرآن لغة كونية لا تعرف التصدعات في بنيتها، و لا التغيرات في قواعدها إنها تملك روافد لكل المصطلحات اللغوية مما ساعد أهل اللغة على الدخول إلى التقعيد و التأليف ، ومنحتهم القدرة العقلية والعلمية على مواجهة اللحن ،الأمر الذي دفع باللغويين صناعة المعاجم و وضع الضوابط لتمكين المتعلم من فهم أسرار الكتاب ، وتعبئتها روحيا حتى لا يتوغل الدخيل في لغته.

إنّ الاتّصال الذي تنبّه إليه اللغويون في فجر التأليف يؤكّد التحام اللغة مع النحو على منهج متأن بعيدا عن الانحراف العقلي و التعسّف الفلسفي. فقد توفّر للنحاة القدرة على تبويبه تبويبا مستوعبا أنماط الجمل ورصد القوانين،و المتأمّل في هذا التبويب يكتشف نباهة العلماء و فطنتهم في الاجتهاد الذي يعطي لغة القرآن شرفا يضفي على أصحابها السيادة خاصة النابغين منهم، وكان في طليعتهم اللغويون وهي فئة ضخمة من حفظة القرآن الكريم في فهمه أسرار اللغة أهلهم على الاحتجاج والتخريج ، فهم لا يقبلون أيّ تساهل في أمر التراكيب النحوية حتى عُدّ من معالم التراث يثبت أصالة اللغة العربية على سائر اللغات، فجلب المستعربين لقبول منطق اللغة ، ما جعل أصحابه حريصين على إثبات إنسانية العربية ، وأنّ الثورة النحوية اللغوية كانت ضد اللحن.

لقد انكب القدامى على البحث في الضوابط النحوية، و تعمّقوا في مباحثها لارتباطها بالكلام الفصيح، ووقفوا عند مواطن الإعجاز، وكان اتّصالهم بالمنهج النحوي وثيقا. فقوة التراكيب النحوية في القرآن تجعل المتعلّم يدرك أهميتها لتستقرّ في الذهن، فهي تأخذ موقعها في الكلام الذي سيق لها حتى تحقّق الانسجام، وهذا بإحضار الجمل وما يلائمها من كلمات . فالسير الدقيق للجمل واحدة تلو الأخرى يعطي النص التفاعل والتواصل، ويجعله ثابتا بشكل واضح.فتنويع الجمل من المظاهر الجمالية في اللغة لما له من دور في توسيع القيم الفنّية للجمل في نظام بنائها، واعتدال تراكيبها .

فالثراء النحوي للنص القرآني دفع العلماء إلى الاستفاضة في موضوعات كثيرة، وأعملوا عقلهم في استنباط القواعد والأحكام. فحدّدوا الوظائف النحوية للأنماط التركيبية التي شهدها الارتقاء اللغوي، و تأكيد وجوب وضع النحو العربي وتمحيصه ليصبح أداة إيحائية، من أجل تيسير أغوار الخطاب اللغوي و الأدبي معا،وإخضاعه لنظام لغوي خال من التعقيد و التعسّف، ويحقّق الصّحة النحوية اعتمادا على لغة القرآن في تحديد العلاقات الأساسية في الجملة على أساس أنّها وظائف ، يؤديها كلّ مكوّن بحسب ارتباطه لما بعده وما قبله.

إنّ التراكيب النحوية الواردة في القرآن مشحونة بالمعاني ذات القيم الروحية، مبنية على معايير تعرضها آليات اللغة عن طريق وصف واسع لها تعطيها دلالات فوق معناه الرسمي ،

فالتراث اللغوي خاصة الدرس النحوي منه يتعامل مع هذه اللغة بذكر جذوره و اشتقاقها و صيغتها ، ما صعّب مهمة ترجمتها إلى لغات أخرى فالنظام النحوي أبقاها متميّزة بالنظم القرآني.

النحو باب مهمّ في القرآن الكريم، إنّه يحدّد الدلالة والغاية مع مراعاة الأحكام اللغوية، فهو يمثل جانبا متميّزا من العلوم الآلية في إبانة الكلام على صورة توضّح اللفظ وتكشف عن المعنى. ويشكّل جوهر الجودة للنصّ، فالالتزام به سبيل إلى الاستمتاع والتدبر،إنّه ظاهرة لغوية وصورة نطقية تؤخذ من قراءة القرآن، فالتراكيب النحوية مختلفة تؤدّي معاني متباينة تتفق مع وجوه التفسير ودقّة اللغة.

فقد شكّل لوحة جمالية تعطي النص القرآني ميزة الإعجاز في الأداء، و ساهم في تقوية بنية القراءة القرآنية لإبراز جمال النص القرآني من منابعه اللغوية التي تكسبنا القدرة على التذوق، وتوصلنا إلى صورة مثالية مقنعة لإدراك عظمة كتاب الله.

جهود النحاة في خدمة لغة القرآن

لقد حكّم النحاة منطق اللغة العربية في تناولهم علاقة النحو باللغة، فالذي توصّلوا إليه امتاز بالنضج ورؤية شاملة انبعثت من إحاطتهم باللغة على أنّها وسيلة للفهم واستنباط الأحكام .فقد اهتدوا بفطنتهم إلى الإبانة عن كثير من أسرار هذه القضية، وهذا ما نجده مبثوثا في كتبهم.

إنّ علم النحو من خلال القرآن الكريم قد أثبت فاعليته في الثقافة اللغوية، والنشاط الفكري، إمّا على المستوى المنهجي أو على المستوى الإجرائي.

فقد بادر العلماء إلى تأسيس هذا العلم، وكان القرآن الكريم ميدان العمل. فساهم أبو الأسود الدؤلي في وضع هذا العلم "وكان أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي."(5) وسبب بناء علم النحو اللحن الذي بدأ يدبّ في بعض الألسن عند قراءة القرآن الكريم، فانطلق أبو الأسود في بناء النظرية النّحوية التي أسست على خطواتها القواعد والأحكام لتكون وسيلة في إدراك النّص القرآني،و الوقوف عند مكونات الجمل القرآنية منها الأفعال التي كان لها حيز كبير في القرآن، وقد ذكر سيبويه180هـ في كتابه عددا من الأفعال التي وردت في القرآن الكريم، من حيث صورُ ضبطها بالحركات ودلالتها، وتضمنت هذا

الدلالة معنى آخر، فقعّد قواعد في ذلك، كما ذكر تصريفها، واهتمّ بتأويلها إن حُذِفَتْ من السياق الذي ارتأه.

ومن الأفعال القرآنية التي وقف عندها بشيء من التفسير من خلال دلالتها في الآية الفعل (علم). قال تعالى :(وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ) البقرة: 65، وعند قوله تعالى :(وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ) الأنفال: 60)، ورأى أن الفعل (علم) في الآيتين تَضَمَّنَ معنى عَرَف، ثم قيّد ذلك بضابطً فقال"وقد يكون «علمتُ» بمنزلة عَرَفْتُ، لا تريد إلا عِلْم الأول، فمن ذلك..."(6) وقد بيّن السيرافي 368هـ كلامه بقوله: "«علمت» إذا أَرَدْت به معرفة ذات الاسم، ولم تكن عارفاً به من قبل، كقولك: «علمتُ زيداً أي: عَرَفْتُه، ولم أكن أعرفُه من قبلُ، وليس بمنزلة قولك: «علمتُ زيداً قائماً» إذا أَخْبَرْتَ عن معرفتِك بقيامه، وكنتَ عارفاً من قبل. "(7) وفسَّر سيبويه (كان) بمعنى وجد في قوله تعالى :(وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ) البقرة: 280 «كان» في هذا السياق اكتفت بفاعلها.

وفي كتابه تحليل لغوي لأسماء قرآنية، يكشف معناها بمرادفتها، أو يوضح دلالتها في سياقها من ذلك:ما أشار إليه في تفسير(الصِّبغة) في قوله تعالى: (صِبۡغَةَ ٱللَّهِ) البقرة137 وقد فسر ابن عباس الكلمة (صبغة) بالدين وهّذا ما ذهب إليه الطبري .أمّا راغب فقد فسّرها بالعقل تمييزا عن الحيوانات.

وأشار سيبويه إلى لفظة (الأعراب) (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) الحجرات 14 وقال: إنها صيغةُ جمع لأعرابي، وليست جمعاً لعرب، لأن العرب هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادي أم سكن القرى.

إنّ لفظ (أعراب) ليس لها واحد من لفظها قال سيبويه "تقول في النسب إلى أعراب: أعرابي؛لأنّ ليس له واحد على هذا المعنى." (8) و يظهر من كلام سيبويه أنّ (أعراب) لا تعدّ جمعا، لأنّ الجمع يدلّ على العموم ، بيد أنّ "الأعراب تدلّ على الخصوص و هم سكان البادية. وفي هذا الباب يقول ابن مالك تقول في النسب أعراب: أعرابي، إذ لو قيل فيه عربي ردا على المفرد لالتبس الأعم بالأخص؛ لاختصاص الأعراب بالبوادي." (9) كذلك كلمة (أناس)لم يتّفق اللغويون على الأصل الذي اشتقت منه الكلمة، واختلافها مع كلمة(ناس) و كان لسيبويه رأيه في

هذه المسألة انطلاقا من قوله تعالى(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) الفرقان 49

الأصل في الناس والأناسي مخففا فجعلوا الألف و اللام عوضا من الهمزة) فوزن الكلمة على (فُعال) وقد عدّها سيبويه من الجموع وله وقفة مع هذا النوع من الجموع "ربي: رباب، حذفوا الألف و بنوه على هذا البناء."(10)

و في باب الأدوات ساهم سيبويه كثيرا في تسهيل تعامل المفسرين للكشف عن معاني الحروف المبثوثة في ثنايا الآيات الكريمة، ويسّر العمل لعلماء اللغة للتقرب من هذه الحروف لتوضيح دلالتها، واستحضار الأدلة القرآنية، ومن الأدوات التي تعمّق في معاني الواو من ذالك قوله تعالى: (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ) آل عمران 154فقد عدّ سيبويه (الواو)قبل كلمة طائفة "كأنّه قال: إذ طائفة في هذه (الحال)، فإنما جَعَله وقتاً، ولم يُرِدْ أن يجعلَها واوَ عطف، وإنما هي واو الابتداء." (11)

و قد أيّد هاذ الرأي ابن عطية541ه في المحرر الوجيز "هي واو الحال كما تقول: جئت و زيد قائم.قاله سيبويه و غيره." (12) و عرج على موقع إعرابها في قوله تعالى(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)لقمان 27 فجملة و البحر واقعة حالا وعلى هذا الأساس عدّ سيبويه الواو للحال على جملة ما في الأرض من شجرة.

(وقد رفعه قوم على قوله: «لو ضرَبْتَ عبد الله وزيدٌ قائمٌ ما ضَرَّكَ» أي: لو ضرَبْتَ عبد الله وزيدٌ في هذه الحال)وقوله تعالى:(وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) البقرة: 280. (كان) في هذا السياق اكتفت بفاعلها.

كما كان لسيبويه دور في توجيه القراءات بإخضاعها للقياس النحوي مثلاً (ما) اختلف الحجازيون مع التميميين في عملها"وأمَّا بنو تميم فيجرّونها– أي يَجرُون الحرف ما– مَجرى: أمّا وهل، وهو القياس؛ لأنّها ليست بفعل، وليست:ما كليس، ولا يكون فيها إضمارٌ أمّ أهل الحجاز فيشبهونها بليس إذا كان معناها كمعناها."(13) في قوله تعالى: (ما هَذا بشَراً) يوسف 31(عاملة عمل (ليس) في ومال إلى رأي بني تميم في عدم إعمال (ما)، ويرى ذلك هو الأقيس، فهي

حرف، وليست فعلاً،ونفى مشابهة ليس من ناحية الفعلية، ولا من ناحية الإضمار. وما نستطيع قوله هو أنّ سيبويه في كتابه يرى ضرورة الإحاطة بالمسائل النحوية الواردة في القرآن الكريم، مع العناية بها حتى يتّضح التفسير و الفهم للنهوض أكثر بلغة القرآن مع علم دقيق بالإعراب، فجهوده جليّة و إسهامه واضح و تميّزه خدمة القرآن كان مدعاة لغيره للاجتهاد.

أمّا ابن جني فقد استطاع أن يكشف العلاقات الداخلية بين المفردات التي يتألف منها التركيب ، وجعل ابن جني المعنى أساس صحة التركيب النحوي وقبوله، ولا نستطيع تقييمه منفرداً بعيداً عن السياق اللغوي، كما أن تأليف الكلام أو نظمه على قواعد النحو ليس أساساً في صحة التركيب ، بل الأساس اتساق التركيب في المعنى مع قواعد التركيب. ما يعكس عظمة لغة القرآن الذي راعى التراكيب و دلالتها من منطوق و مكتوب كأنّه اللغة بعينها، و أدرك قيمته في التفريق بين المعنى والإعراب " وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى تقبّلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب،حتى لا يشذّ شيء منها عليك ، و إياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه." (14)

ويرى أنّ للغة دورا في تبيان أنواع الجمل "فأول ذلك عنايتها –أي العرب –بألفاظها، فإنّها لمّا كانت عنوان معانيها، وطريق إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك وقع لها في السمع،وأذهب بها في الدلالة على القصد." (15)

فنظرته الموضوعية النزيهة إلى ما كتبه فهو لا يكاد يخرج عما كتبه من سبقه، فقد كان له وعي بجميع القضايا اللغوية. فتتبع ما كتبه في الخصائص و سر صناعة الإعراب يكشف مساهمته الكبيرة في تطوير التصور اللغوي في علم النحو، ولو نظرنا إلى الكتابين لوجدناهما من أكثر اللغويين استيعابا لعلاقة علم التراكيب باللغة.و لابن جني آراء نحوية في القراءات القرآنية، فقد وجّه الشاذة وضعّف بعض القراءات المتواترة السبع، وجسّد ذلك في كتابه المحتسب مقتفيا خطى شيخه أبي على الفارسي في مؤلفه الحجة.

من القراءات الشاذة التي وجهها قراءة أبي جعفر قال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) البقرة 34"قال إنّ هذا ضعيف جدا." (16) و قراءة الأعمش(فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) البقرة 60 بفتح الشين، فعدّ ابن جني هذه القراءة لا تتماشى و القياس "والأصل عشْرة و عشِرة عشَرة فشاذ." (17).و قراءة ابن المحيصن(ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ)البقرة 126 بإدغام الضاد في الطاء أبو الفتح قراءة مرذولة." (18)

أمّا القراءات المتواترة فعارض ما لم يتّفق مع القياس وسدّدها وجمع ذلك في كتابه سر الصناعة مثلا ردّه لقراءة أبي عمرو(إنا نحن نحبي و نميت) فهو يرى أن" النون الأولى يجب أن تكون مختلسة الضمة تخفيفا بزنة المتحركة فأمّا أن تكون ساكنة والحاء قبلها ساكنة فخطأ." (19) وأنكر قراءة عاصم(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) القيامة27 " قال ببيان النون من (منَ)فعيب في الإعراب ومعيف في الأسماع، و ذلك أنّ النون الساكنة لا توّقف في وجوب إدغامها في الراء نحو : من رأيت ومن كز."(20)) **220**.وقد خالف الكوفيين فيما ذهبوا إليه في قراءتهم من ذلك قراءة الكسائي(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) الأنبياء 73 "بالتحقيق فيهما عدّه من الشاذ عند البصريين"(21) بذل أبو الفتح جهده في التعامل مع القرآن فتحرى الضبط و التدقيق فيما ذهب إليه معتمدا على ما تواتر عن الرسول (ص) لأنّه يوافق القياس و هو الأصح في الثبوت في الأثر.

أما جهود الكوفيين ظهرت عند الكسائي189ه أحد القراء السبعة وكان إمامهم وقدوتهم، كان أعلم الناس في النحو وأسرار العربية ، كما تميّز عن غير من القراء ينتقي القراءات متأثرا بشيخه حمزة.كان متقنا لعلمه لا يجالس أحدا إلا كان أعلم منه في الضبط و التدقيق. كانت قراءته للقرآن الكريم قراءة واعية لأنّه كان يدرك آياته، وتراكيبه تحتاج إلى معرفة عميقة للنحو العربي، فالغاية من وضعهم للنَّحْو هي خدمةُ معاني هذا الكتاب واستنباطُ الأحكامِ منها. فنَحْو القرآن الكريم في جميع رواياته دفاعٌ عن النَّحْو العربي، و ضبط قواعدَهُ، وتمتين شواهدَهُ. من أجل تحقيق مقاصده تعامل مع رسم القرآن بيسر، ويتحفظ من القراءات عند التخريج.أمّا القراءات النادرة فيتّخذها أساسا لبناء مذهبه، ويتبناها في الاستعمال النحوي من ذلك قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا الله) (الأحزاب 56). قرأ الملائكة بالرفع بالعطف على اسم إنّ قبل ظهور الخبر قال أبو حيان الأندلسي " هو عند الكوفيين غير الفراء عطفا على موضع اسم إنّ، و الفراء يشترط خفاء إعراب اسم إنّ." (22)

كما وجّه قراءات مبيّنا اتجاهه النحوي من ذلك رفع المضارع بعد حذف أن الناصبة و الجار في قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) و (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) البقرة 83 -84 "ذهب الكسائي إلى أنّ أصلهما بأن تعبدوا إلا الله و، بأن لا تسفكوا، ثمّ حذف الجار ، ثمّ (أن) فارتفع الفعل." (23)

لقد أدرك الباحثون أنّ مهارات التأليف في المنهج الصوتي لعلم النحو تسلل مع نزول القرآن الكريم ،وأنّ نسيج الكلمات من الأصوات اللغوية التي أحاطت بالمقاطع الصوتية ميّزت الأسماء و الأفعال لصيغ محدّدة وفق ضوابط كاملة تكونت من لغة القرآن، و من الذين أبدعوا في هذا المجال الفراء207ه الذي ألّف كتابه معاني القرآن بحث فيه خصائص التركيب اللغوي، ومنها المستوى الصوتي الذي اتّبع فيه منهجا ارتكز على مذاهب القراء، وطبّقها على القرآن الكريم، فوقف عند كثير من الأنظمة الصوتية منها التنغيم لبيان علاقته بالنحو في تفسير بعض المسائل الإعرابية المرتبطة بالتأليف الصوتي، وكما عمل على تصنيف الجمل حسب إيقاعها. والاعتماد عليه في التخريج النحوي.وقد استعرضه في كتابه (معاني القرآن) لضبط بعض المسائل النحوية في إطار المنهج الصوتي " التنظيم من الحقائق الصوتية في اللغات المختلفة وهو مرتبط بالارتفاع والانخفاض في نطق الكلام نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى اختلاف الوقع السمعي." (24) وقد توصّل الفراء إلى قاعدة استثمرها من قراءته لنصوص القرآن، وتفسيره ما ارتبط بها من قضايا نحوية اقتضاها المنهج الصوتي "فاعرف بما جرى تفسير ما بقي، فإنّه لا يأتي إلا على الذي أنبأك به من الفصول أو الكلام المكتفي يأتي له جواب." (25) فالفراء يتحرى الدقّة لينظّم تفسيره مستقرئا الآيات التي استوفت ظاهرة التنغيم، باحثا عن العلاقة المميزة بالنحو مستنبطا بذوقه النسق الصوتي مظهرا للمعاني القرآنية المتأصّلة. ومما ساعده على ذلك نظرته القويّة في ربط الآية بالأخرى كاشفا القيمة الصوتية للتركيب.

كما تجلّت علاقة المنهج الصوتي بالنحو في ظاهرة الإتباع الذي ألفه الفراء في فلسفته النحوية في تأليف الكلمة انطلاقا من الذوق في تجاور الحروف أو تباعدها "فالإتباع ظاهرة صوتية توجبها دواعي المماثلة وهي أنّ الأصوات اللغوية يتأثر قربها في الصفات أو المخارج" (26) وقد

اشترط فيه شرط المجاورة ليتحقّق تأثر الصوت بالمجاورة حين تتابع الحركات التي يحتاجها لنطق طلبا للخفة، وهي ظاهرة كانت شائعة عند أهل البادية.

فالإتباع تكون فيه الحركات الإعرابية مؤثرة، و هذا ما تنبّه إليه الفراء كغيره من أهل اللغة لأنّه يمثّل تطورا في حركات الكلمة، فالكلمة التي تشتمل على حركات متباينة تميل في تطورها إلى الانسجام بين هذه الحركات ، حتى لا ينتقل اللسان من ضمّ إلى كسر إلى فتح في الحركات المتوالية. و يبدو أنّ الإتباع أو التوافق لم يكن شائعا عند كلّ العرب، بل في بعض اللهجات التي تميل إلى التوافق بين الحركات، وهذا وفقا للحركة الأصلية في الكلمة حتى تؤثر في الحركة التي تليها لتنقلها إلى جنسها، وقبيلة تميم كانت تؤثر الكسرة لقوّة تأثيرها في الضمّ والفتح.

ومن الشواهد القرآنية التي عالجها الفراء في هذا الباب قوله تعال (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) الحج 45 علّق عليها بقوله " البئر و القصر يخفضان على العطف على العروش، و إذا نظرت في معناها وجدتها ليس تحسن فيها (على)؛لأنّ لعروش أعالي البيوت، و البئر في الأرض، وكذلك القصر لأنّ القرية لم تخو على القصر، ولكن أتبع بعضها بعضا."(27) وكذلك قوله تعالى(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ)الواقعة22 ،اختلف النحاة في "حور عين في الحركات الثلاث ، لكنّ الفراء كان له رأي خاص و هو الجر "خفضهما أصحاب عبد الله وهو وجه العربية و إن كان أكثر القراء على الرفع؛لأنّهم هابوا أن يجعلوا حور العين يطاف بهنّ فرفعوا على قولك :و لهم حور عين أو عندهم حور عين." (28)

اهتّم العلماء بلغة القرآن لما فيها من إعجاز لغوي في تأصيلها، فهي تعطي النص تماسكا وقوّة. وجدوا فيها وسيلة لتوطين النظام اللغوي خاصة التناسق المنطقي بين مستوياته، ومنها النحوي واللغوي اللذان يردان في النص لدوافع سياقية وللتنويع في أساليب التعبير، زاخرين بالمعاني النفسية يحملان أسرارا جمالية.إنّهما من أعمق الظواهر اللغوية في النص القرآني يؤديان دورا لغويا متميزا ، لهما تأثير واضح في إسقاط الزيادة ،و تحقيق الانسجام الذي يستريح له ذوق المتلقي .

الهوامش :

1- الفارابي(أبو نصر محمد بن محمد)، إحصاءا لعلوم، تحقيق: عثمان آمين، ط2 دار الفكر العربي مصر 1949، ص45

2 - ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد)، المقدمة، تحقيق: محمد الدرويش،ط1دار العرب،ص1/ 532

3- ابن جني(أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، 283/1

4. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط3 مكتبة الأنجلو المصرية 1984، ص 76

5- السيرافي(أبو سعيد الحسن بن عبد الله)، شرح كتاب سيبويه، تحقيق: حسن المهدلي وعلي السيد علي، دار الكتب العلمية بيروت 317/2

6 - الشافعي (محمد بن عبد الرحمن الشيرازي)، جامع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق عبد الحميد الهنداوي،ط1دار الكتب العلمية بيروت ، 2 /456

7- سيبويه(عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3دار عالم للكتب بيروت 379/11983

8- ابن مالك(جمال الدين محمد بن عبد الله)، شرح التسهيل، تحقيق:: عبد الرحمن السيد ومحمد المختون، دار هجر مصر 1 / 88

9- ابن مالك، شرح التسهيل 88/1

10- سيبويه، الكتاب، 309/3

11 . نفس المصدر، 90/1

12- ابن عطية(عبد الحق بن غالب)، المحرر الوجيز، دار ابن حزم بيروت 2002م371/1

13- سيبويه ، الكتاب، 3/ 379

14-ابن جني ، الخصائص، ص 284

15- ابن جني، المحتسب، المحتسب، تحقيق:علي النجدي ناصف، مطابع الأهرام 24/1

16 . نفس المصدر،ص 33

17. نفس المصدر ص42

18- ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، ط3دار القلم مصر 1413هـ65/1

19- ابن جنبي، الخصائص، 94/2

20- ابن جني، نفس المصدر143/3

21. أبو حيان(محمد ين يوسف)، البحر المحيط، تحقيق أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت، 339/7

22- ابن هشام (أبو محمد بن عبد الله)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية بيرزت1411هـ، 5/ 131 . 132

23- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة القاهرة، ص 82

24- الفراء(أبو زكريا يحي بن زياد)، معاني القرآن، ط3عالم الكتب بيروت 1403هـ 44/1

25- إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربية، 179

26- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،مكتبة نهضة مصر ، ص86
27- الفراء، معاني القرآن، 228/2
28- العكبري (أبو البقاء)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق :علي محمد البجاوي،ط2 الجيل بيروت 1987م12/2